الفصل الثالث
المكونات والجهود

- أولًا: المكونات.
- ثانيًا: الجهود.

الفصل الثالث

المكونات والجهود

أولًا: المكونات الثقافية:

رغم اتجاه هذا الكتابِ إلى الدراسة التطبيقية والتركيز على نتاج أعلام مدرسة البيان، فإنّ الحديث عن مكوناتهم الثقافية يعدّ مسألة مفيدة: توضّح للقارئ بعض الظواهر والخصائص التي يتميّز بها أعلام المدرسة على مستوى الشكل والمضمون معًا.

والمكونات الثقافية لأعلام المدرسة البيانية الحديثة كثيرة ومتعددة. ويمكن تحديدها في عددٍ من النقاط، أهمها: شدّة الصلة بالعقيدة الإسلامية، والتعامل الحميم مع التراث الأدبي والفكري، وصحبة الشخصيات الأدبية والفكرية البارزة في أيامهم، والاطلاع على الثقافة الغربية الحديثة. وفيما يلي توضيح موجز ومبسط لكلّ نقطة من تلك النقاط:

١ـ العقيدة الإسلامية:

إذا تتّبع الباحث نشأة أعلام مدرسة البيان، فسوف يجدهم أو معظمهم قد نشأ في بيئة إسلامية خالصة، تحتفل بالدين، وتقدّس القرآن، وتهتم بالحديث، وتحفظ السيرة النبوية، وترى في الدين حياة آخرة، وفكرًا وسلوكًا، ووسيلة وغاية.

وقد تربّى معظم الأعلام في «الكتاب» وحفظ من خلاله «القرآن الكريم» بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة، ويمكن القول: إنّ القرآن الكريم كان منطقة

الحسم في حياة الأعلام ثقافيًّا، فقد أعطاهم قدرة على الفصاحة والبيان لا تتوفر إلّا لمن حفظ القرآن فقط. وهي خاصية ملحوظة في كلّ حفظة القرآن الذين اشتغلوا بصناعة القلم، ولعلّ ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى البيان القرآني نفسه، وسمو منزلته، وعلو مكانته؛ حيث حقّق «الإعجاز»، واعترف أساطين البلاغة والبيان من لدُن البعثة المحمدية حتى يومنا بقصورهم وعجزهم أمام بيانه وتعبيره.

ومِن الطبيعي أن يتأثر مَن يقرأ القرآن ببيانه وأسلوبه. ويأخذ مِن عطره ما يشمّه الآخرون سواءً كان ذلك بالاقتباس أو الانطلاق التعبيري وسهولته على اللسان والورق معًا.

وقد قيل إنّ بعض الزعماء غير المسلمين في فترة النصف الأول من القرن العشرين، قد اكتسبوا شعبية كبيرة في ميدان السياسة بفضل قدرتهم على التعبير والأداء الجيد، وسُئل واحدٌ منهم عن السرّ في ذلك فعرف أنه كان يحفظ القرآن ويتلوه باستمرار، ويستشهد به ويقتبسه في خطبه وأحاديثه وكتاباته.

بيدَ أنّ أهم ما يميز مدرسة البيان هو استفادتها العظيمة من الأداء القرآني في بيانها، فقد تعطّر أسلوب أعلامها بالاقتباس من القرآن. والتضمين بألفاظه وصوره، وقد ذهب بعضهم في البداية إلى محاولة الكتابة متأثرًا بفاصلته.

ولو أحصينا أثر القرآن على أسلوب مدرسة البيان لوجدناه يشكّل حجر الزاوية في أساليب الأعلام وتيارات البيان المتعددة بشكلٍ عام، وتقرأ آثار المدرسة فلا تجد فصلًا أو موضوعًا، بل تكاد لا تجد صفحة واحدة تخلو من أثر التعبير القرآني الذي يذكّرك بأروع ما عُرف من الأداء التعبيري الخالد.

ولا يقلّ تأثّر أعلام البيان بالحديث النبوي الشريف، فقد كان- وما زال- من جوامع الكلم الذي نطق به رسول الله ﷺ وقد كان أفصح العرب وأظهرهم بيانًا في كلامه العادي وأحاديثه، وهو القائل عن نفسه: «إني أفصحُ العرب بيدَ أني من قريش»..وقد أدرك أعلام البيان هذه الخاصية، فاستفادوا منها كما استفادوا من القرآن الكريم- كما نرى في كتاباتهم- كثيرًا من التضمين أو الاقتباس للحديث الشريف، وقد تحدّث بعضهم عن أسلوب الرسول ﷺ وبلاغته، وقد خصص له «الرافعي» جزءًا كبيرًا من كتابه «تاريخ آداب العرب»[1] حيث اشتملَ الجزء الثاني على فصول طويلة تتحدّث عن مميزات البلاغة وذلك الأسلوب بإسهاب، وقد خصص «الزيات» أكثر من مقالة للحديث عن البيان النبوي الشريف، وإنْ كان قد آثرَ الإيجاز في تناوله[2].

ولعلّ التكوين السلوكي والإسلامي لأعلام مدرسة البيان، والذي يفصح عن نفسه بوضوح في كتاباتهم، قد نشأ عن تلك الصحبة الطويلة والمعاشرة الدائمة للعلوم الإسلامية المختلفة المتعلقة بالشريعة والتوحيد والسيرة والتاريخ والأصول والتفسير وعلم الحديث وغيرها ممّا أعطاهم مددًا ليس باليسير في استيعاب المنهج الإسلامي تصورًا وسلوكًا، وعقيدة وممارسة، ممّا نرى ملامحه في معظم كتابتهم، وفي الروح التي يصدرون عنها في هذه الكتابات.

ويبدو أثرُ مكونات العقيدة الإسلامية على أعلام البيان واضحًا في مسألتين: الأولى تتعلق بطريقة التناول للقضايا المختلفة، وتصورهم لمعالجتها، وهنا يمكن

(١) تاريخ آداب العرب، ج ٢ ص ٢٧٩ -٣٤٢ نهاية الجزء الثاني.

(٢) راجع مثلًا: وحي الرسالة، ج ٣ ص ١٠٥ (موضوع بلاغة الرسول).

القول إن «مدرسة البيان» قد استطاعت أن تحقق هدفًا هامًّا، وهو المحافظة على روح الأمة وشخصيتها أمام الغارة التغريبية التي استهدفت بالدرجة الأولى عقيدة الأمة وإيمانها. ولعلّ هذا يفسر ثراء «النثر الإسلامي» وغناه لدى مدرسة البيان، وقدرته على التعامل بروح المعاصرة مع القضايا المطروحة على ساحة الواقع.

أمّا المسألة الثانية، فتتعلق بالنظرة إلى الأجناس الأدبية الوافدة، مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية، وهي نظرة اتسمت بالحذر والتحرج من المعالجة المكشوفة، أو إثارة القضايا التي لا تنفق مع التصور الإسلامي، ولعل هذا يفسر قلة النتاج الأدبي لمدرسة البيان في هذه الأجناس، ويفسر لنا تلك العفة أو العذرية التي غلّفت تناول الأعلام للعلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة. كما نرى عند «الرافعي» مثلًا في «رسائل الأحزان» و«كتاب المساكين » و«حديث القمر».

ويمكن القول بصفة عامة إن «العقيدة الإسلامية» كان لها تأثير واضح في أدب مدرسة البيان، وأعطاها مددًا كبيرًا، وذخيرة حيّة سواء في أسلوب التناول، أو طريقة تناول الموضوعات المختلفة.

٢ـ التراث العربي:

بلا ريب، فإنّ كلّ كاتب ينتمي لهذه الأمة. ويكتب بلغتها لا بدّ أن يكون قد تعامل مع تراثها تعاملًا حميمًا، يهيئه للعمل، ويعينه في الأداء، ومن ثمّ، فإن عوامل ضعف الأسلوب والانتماء في كتابات البعض ترجعُ إلى ضعف الصلة بالتراث وقلة الإلمام بأهم عناصره.

وقد بدت «مدرسة البيان» قوية في أسلوبها، وفهمها لأصول اللغة وطرق استخدامها، وذلك لمعايشتها التراث العربي شعرًا ونثرًا، وإحاطتها بأفضل عناصر هذا التراث واستيعابها استيعابًا جيدًا وشاملًا.

إنّ اطلاع أعلام البيان الحديث على الشعر، كان له دوره الكبير في تقويم الصياغة لديهم، وترقية الأداء التعبيري، فقد اطلعوا على فحول الشعراء وعلى الطبقات الممتازة منهم، بدءًا من شعراء العصر الجاهلي من أمثال: امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة العبسي، ولبيد بن ربيعة، وطرفة بن العبد، والحارث بن حلّزة، والأعشى، وعبيد بن الأبرص مرورًا بشعراء العصر الإسلامي والعصر الأموي والعصر العباسي الذي بلغ فيه الشعر أوجَه على يد أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء وغيرهم.. ويلاحظ أنه مع اطّلاع المدرسة البيانية على النماذج الراقية، فإنه كان لديهم إلمامٌ كافٍ بالنماذج الرديئة والجامدة والضعيفة خاصة في العصر المملوكي والعصر التركي، وكثيرًا ما أشار أعلام البيان في كتاباتهم إلى رداءة نظم القاضي الفاضل وصنعته المتكلفة باعتباره عنوانًا على فساد الفكرة وتفاهتها والمبالغة في الزخرفة والسجع المجتلب[1].

لقد زودهم الشعر بالكثير من الصور والأخيلة التي شحذت قرائحهم، وحرّكت طبائعهم للابتكار والابتداع في الصورة البيانية، ووسعت آفاق الخيال لديهم، ومن الملاحظ أن بعضهم خاصة «المنفلوطي» و«الرافعي» قد تأثروا إلى حدٍّ كبير بالصور الموروثة عن الشعر القديم، وسوف يظهر من خلال التناول التطبيقي لآثارهما فيما سيأتي من البحث، إن شاء الله.

أمّا النثر فقد أخذوا منه بالحظّ الوافر، واطلعوا على الآثار التي تركها عباقرة الكتاب على اختلاف مناهجهم واهتماماتهم، وقد نهلوا من الموسوعات أو الكتب

(١) انظر مثلًا: دفاع عن البلاغة، ص ١٢٦، والنظرات، ص ٧-٨، وموضوع «البيان» في مقدمة ج٢ من النظرات.

الموسوعية إلى درجةٍ كبيرة خاصة ما تركه «الجاحظ» في مثل كتابيْه «البيان والتبيين» و«الحيوان»، و«ابن الأثير» في كتابه «المثل السائر»، والأصفهاني في كتابه «الأغاني»، والمبرد في كتابه «الكامل»، وأبي علي القالي في «الأمالي»، والهمذاني في «المقامات»، وغيرهم.

كما أنهم استوعبوا ما كتبه النقاد والقدماء خاصة: «عبد القاهر» في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، والقاضي الجرجاني في «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، وقدامه في «نقد النثر» و«نقد الشعر»، وأبي هلال في «الصناعتين»، وابن رشيق في «العمدة»، والآمدي في «الموازنة»، والباقلاني في «إعجاز القرآن».

وقد أدى تأثرهم بهذا التراث النقدي والأدبي إلى معالجة الواقع الأدبي الحديث معالجة موضوعية تستضيء بالمفاهيم الأدبية والقيم النقدية الناضجة خاصة تلك التي أرساها «عبد القاهر» في «دلائل الإعجاز»، وكانت بالتالي تصوراتهم الجديدة للرقي بالأسلوب، ومقاومة التيارات التي أخذت تروّج للركاكة والابتذال والهلهلة، أو تلك التي ثبتت على عبادة الماضي، ونقلت صوره وخيالاته من المحفوظات.

وممّا ساعد على الاستفادة بالتراث، حركة النشر والتحقيق الواسعة التي ازدهرت في مطالع القرن العشرين، فقد فتحت المجال واسعًا أمام التعامل مع نماذج عديدة وألوان مختلفة من كتب التراث، وقد فجّر تحقيق هذه الكتب قضايا حيوية أثارت النقاش والجدل شدت الأذهان بقوة إلى المعالم الجيدة في تراثنا الخالد[1].

وبالطبع، فإن اشتراك ومساهمة المستشرقين، وقيامهم بدور بارز في عملية التحقيق والنشر، وإثارتهم لبعض القضايا، قد أشعل حيوية في الذهن العربي

(١) فيض الخاطر، ج ٦ ص ٢٨٧.

الحديث، أفادت مدرسة البيان إفادة كبيرة في الدخول إلى عمق قضايا التراث، وممارسة تحقيقه بالأسلوب العلمي والتصور الناضج[1].

لقد استفادت مدرسة البيان في النثر الحديث استفادة عظيمة وأساسية من التراث العربي، واستطاعت أن تهتدي بنماذجه الراقية في ترقية الأدب الحديث بصفة عامة، والنثر بصفة خاصة، سواء على مستوى الشكل أو المضمون.

٣- الشخصيات البارزة:

إذا كان بعض السلف قد أشاروا إلى ضرورة اتخاذ معلم أو موجّه، فإن إشارتهم هذه لم تكن مجرد نصيحة عابرة أو رأي عابر يذهب مع الريح.. فالمعلم أو الموجه له دور كبير في حياة التلميذ، خاصة إذا كان التلميذ محبًّا لأستاذه، شغوفًا به، وفيًّا له. إنه حينئذ سيتأثر بكلّ كلمة أو إشارة تصدر عن الأستاذ، وسوف يلبيها بكل إمكاناته ومواهبه. وقد شهد النثر في عهد النهضة الحديثة أستاذيْن كان لهما دورٌ فعّال في توجيه الكتّاب إلى البيان الراقي، والتخلص من القيود التي تعوق النثر عن تقدمه وازدهاره. والأستاذان هما: جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه الأستاذ الإمام محمد عبده.

أخذ جمال الدين على عاتقه أن ينشئَ جيلًا من الكتّاب الذين يجيدون التعبير، ويتطورون بالأسلوب، ويتجاوزون السلبيات والمعوقات التي تحدّ من انطلاقة البيان، وتثقل كاهله بالأغلال والقيود. وقد دعا تلاميذه إلى الاهتمام بتوصيل

---

(١) كتب الرافعي، «تحت راية القرآن» في خضم قضية الشعر الجاهلي، والتي أثيرت حول كتاب طه حسين، في الشعر الجاهلي، والذي قيل: إنه اعتمد على مقولات للمستشرق اليهودي «مرجليوث».

المعنى، وتجنب المقدمات الطويلة[١]، وكان يقدّم لهم النماذج التي يحتذونها، وذلك من خلال مقالاته وكتاباته الصحفية، والتي كانت تتّسم بالجرأة في استعمال القياس اللغوي، والصيغ التي لم يألفها العرب في لغتهم[٢].

لقد حبّب الكتابة إلى تلاميذه، وشجّعهم على إنشاء الجرائد، وشاركهم في تحريرها، وطلب إليهم أن يدبّجوا مقالاتهم في القضايا التي تمسّ الأمة وتؤرقها، وكان من أبرز تلاميذه الذين ساروا على منهجه محمد عبده وأديب إسحاق واللقاني حيث حرّروا جرائد: الوقائع المصرية، والتجارة ومصر، وحققوا إنجازات طيبة في تحرير الأسلوب وتخليصه من الأثقال[٣].

وقد عمل «محمد عبده» على مواصلة رسالة أستاذه، فكانت له تأثيراته الطيبة والعظيمة على زعماء مدرسة البيان بمختلف تياراتهم، وخاصة منذ تولّى التحرير في «الوقائع المصرية»، وكان يلفت نظر الجرائد إلى سوء أسلوبها ويلزم أصحابها أن يختاروا مَن يرفع مستوى الكتابة فيها، ولمّا كان في بيروت كان ممّا يعلّم في «المدرسة السلطانية» الإنشاء. ونشرَ مقامات بديع الزمان الهمذاني بعد أن ضبطها وشرحها، ونهج البلاغة بعد أن ضبطه وشرحه يرمي بذلك إلى تغذية الناشئين بأدبها واتخاذهما نموذجًا من نماذج الأساليب الجيدة»[٤].

ولعلّ الظروف التي مرّ بها الأستاذ الإمام وزعامته الإسلامية المتصاعدة والمتنامية، قد جعلت الأنظار تتعلّق به، وجعلت من ناشئة البيان وشداة الأدب

(١) في الأدب الحديث، ج ١ ص ٣٤٩.
(٢) السابق، ص ٣٥٠.
(٣) السابق أيضًا، ص ٣٣٦-٣٣٧.
(٤) فيض الخاطر، ج٧ ص ٢٠٨.

يرون في أسلوبه وتوجيهه، من خلال الصحبة والمعايشة، الفنَّ الحقيقي الذي ينبغي أن يحتذى، والنموذج الرفيع- آنئذ- الذي يتوجّب الاقتداء به. ومن ثمّ، جاءت أساليب هؤلاء متناسقة ومتناغمة مع دعوةِ الأستاذ الإمام إلى الأساليب الجيدة، وكان شغفُهم بإهداء الأستاذ نسخًا من كتاباتهم، وانتظار تعليقه أو تقريظه أو ثنائه.

لقد كان الأستاذ الإمام مركزَ دائرة دار على محيطها عددٌ كبير من الكتّاب من المهتمين بالبيان ورقيّه، وكان حافظ، والمنفلوطي، والمويلحي الكبير، والمويلحي الصغير، وقاسم أمين، وعلي يوسف، وعبد العزيز جاويش، وغيرهم؛ يبحثون- على تفاوت فيما بينهم- عن الصورة المثلى في الأداء التعبيري اقتداءً بالأستاذ الإمام وسعيًا لإرضائه وكسب ثنائه.

ويمكن القول: إن شخصية «سعد زغلول» الزعيم المعروف؛ كانت عاملًا مؤثرًا في البيان بطريقة أو أخرى، وباعتباره شخصية بارزة، ومؤثرة فقد احتضن وقرّظ عددًا من الكتّاب في مدرسة البيان، خاصة المنفلوطي والرافعي.. فقد استصحبَ معه «المنفلوطي» وولّاه الإشراف على لغة الكتبة بنظارة المعارف عندما أصبح ناظرًا (وزيرًا) لها، ليعمل على ترقية الأساليب التي يستخدمها هؤلاء بعد تخليصها من الركاكة والعامية والجفاف والصيغ الخطأ والمحفوظة، ثم استصحبه معه إلى وزارة الحقّانية (العدل) عندما انتقل إليها، لمثل هذه المهمة، ممّا كان له أثرٌ عظيم في تقدم لغة الكتابة بهاتين النظارتين (الوزارتين) قبل غيرهما[1].

(١) قصة الأدب في مصر، ج ٤ ص ٦١.

وقد صدّر الرافعي كتابه «وحي القلم» بتقريظ «سعد زغلول» له، ممّا يؤكد أثرَ شخصية «سعد» في الحكم على الأعمال الأدبية والأساليب المختلفة، لقد كتب «سعد» يقول للرافعي عن «وحي القلم»: «بيان كأنّه تنزيلٌ من التنزيل أو قبسٌ من نور الذكر الحكيم»[1]. وكأن سعدًا يشبّه وحي القلم بوحي السماء، ويضع بيانه إلى جانب البيان القرآني العظيم، وهو ما يدلّ من ناحية أخرى على الاهتمام برقي الصياغة وجمال التعبير، وتفوق الأسلوب.

وهناك شخصيات عديدة بازرة أثّرت بقوة أساليبها في مدرسة البيان الحديث، ولعلّ من المناسب هنا الإشارة إلى أثر المويلحي الكبير والمويلحي الصغير وكتابه «حديث عيسى بن هشام» على واحدٍ من أعلام مدرسة البيان مثل «البشري». وكان الشيخ البشري يرى في هذا الكتاب- حديث عيسى بن هشام- البيان العربي المثالي، وكان يقول: وددتُ لو أكتب سطرًا في مثل أسلوب حديث عيسى بن هشام! وكان هذا القول تواضعًا منه- رحمه الله- فقد كان في بعض كتاباته يحلّق ويحلّق، حتى ليكون المجلي على أستاذه، ويقنع أستاذه بأن يكون مع المصلين»[2].

ويمكن القول: إن الشخصيات البارزة أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده وسعد زغلول والمويلحي وغيرهم؛ كان لهم أثرٌ كبير بما قدموه من توجيهات التطوير والأساليب وترقية الصياغة، أو بالنماذج الجيدة التي كتبوها ونشروها، أو بتشجيعهم للكتاب ووضعهم في موضع القدوة والأسوة.

---

(١) انظر: «وحي القلم» ج ١ صفحة الغلاف الداخلي، وقد صدر الرافعي أيضًا وحي القلم بكتاب تقريظ من الأستاذ الإمام محمد عبده يدعو له فيه بأن يقيمه في الأواخر مقام حسان في الأوائل، ص ٩.

(٢) في الأدب الحديث، ج١ ص ٢٤٩.

٤ - الثقافة الأجنبية:

تعددت مستويات الاتصال بين أعلام مدرسة البيان والثقافة الأجنبية. فقد أتيح لبعضهم أن يتصل اتصالًا مباشرًا بالثقافة الأجنبية، ويعايشها وسط محيطها وبيئتها، ولم يتح للبعض الآخر الاطلاع المباشر، ولكن أتيح له أن يستوعب هذه الثقافة عن طريق الترجمة والملخصات التي تتناول موضوعات مختلفة.. أما البعض الأخير فقد شغلته الثقافة العربية عن الثقافة الغربية، وكان اطلاعه على هذه محدودًا أو معدومًا.

ويمكن القول بصفة عامة: إن أغلبية زعماء البيان كانوا على اتصال وثيق بالثقافة الغربية، فاستفادوا منها استفادة كبيرة أعطتهم المزيد من التفوق الأسلوبي، ووسعت من آفاق الخيال والتعبير لديهم.

ويعدّ «الزيات» من أعلام البيان الذين اتصلوا اتصالًا وثيقًا بالثقافة الغربية، خاصة الفرنسية، فقد أتيح له أن يسافر إلى فرنسا ويمضي بها سنوات عديدة. فاكتسب اللغة من بيئتها، وأتيح له الاطلاع على النماذج الأدبية الفرنسية المختلفة، وعرف عن أعلام الأدب هناك وأساليبهم الكثير، وقد تأثر بكثير من آرائهم بالنسبة للصياغة الأسلوبية والاهتمام بها. وائتَنَس بآرائهم في كتابه «دفاع عن البلاغة»[1].

ولعلّ من الأفضل التنويه بما قاله «الزيات» نفسه عن تأثره بالأدب الغربي ردًّا على سؤال حول الأدب العالمي الذي تأثر به قال:

---

(١) انظر مثلًا: دفاع عن البلاغة، ص ٩٧-٩٨ واستشهاده بما جرى بين شانوير يان، وفلوبير وبوالو حول الإيجاز وتكرار الألفاظ.

«الأدب العالمي الذي تأثرت به بعد الأدب العربي هو الأدبُ الفرنسي، وذلك لأسباب أهمها أن اللغة الفرنسية هي لغتي الثانية، فمن الطبيعي أن أقرأ بها وأن أبدأ بأدبها.. والأدب الفرنسي كالأدب العربي يعتمد على بلاغة الأسلوب في الصورة والفكرة. وعلى يراعه الذهن في الخلق والتصوير. وهو أقرب الآداب الأوروبية إلى أذواقنا المرهفة وعواطفنا المشبوبة، ولعل للطباع المشتركة بين أمم البحر الأبيض دخلًا في ذلك.

أمّا الأدباء الذين أعجبت بهم فأكثرهم من أدباء القرن التاسع عشر مثل: هوجو، ولامارتين، وشاتوبر يان، وفلوبير، ودوديه، وهُم يمثّلون الأدب الفرنسي في أوْج ازدهاره. وقد تأثرت بهم في تخليص أسلوبي من الفضول والحشو والسطحية والميوعة ووصف الأشياء بالتقريب لا بالتحديد، والتعمّق في درس الموضوع، والإحاطة بجملته وتفصيله وبيئته وجوّه»[1].

وقد تجاوز «الزيات» حدودَ التأثر بالأدب الفرنسي إلى حدود إخضاعه للترجمة العربية بمفهومه هو، حين ترجم «آلام فرتر» و«روفائيل»، وبعض القصص والقصائد عن الفرنسية، وسوف يأتي الحديث- إن شاء الله- عن أسلوب الزيات في الترجمة.

أمّا «المنفلوطي»، فقد كان من الفريق الذي تأثر بالأدب الغربي (الفرنسي بالتحديد) بطريقة غير مباشرة، حين طلب من بعض الكتّاب الذين يعرفون الفرنسية أن يترجموا له ترجمةً حرفية بعض الروايات والقصص والقصائد والموضوعات، على أن يتولّى هو الصياغة العربية بطريقته البيانية، وقد كان لذلك تأثير كبير حين

(١) في ضوء الرسالة، ص (هـ).

اقتبس بعض الموضوعات والقصص وضمّنها مقالاته وقصصه، فاستفاد بذلك معرفة بجنس أدبي جديد هو القصة بالمفهوم الحديث، وكان- بحقّ- الرائد الذي قدّم نتاجًا له قيمته في هذا الجنس، وإن كانت هناك بعض العيوب التي لم يستطع التخلّص منها[1].

وكان من نتيجة ذلك التأثير بالأدب الفرنسي أنْ أصبح أسلوب «المنفلوطي» أكثر انسيابية وترسّلًا. وحفَلَ بخيال جديد، وصورٍ طريقة. أمّا الذين وقفوا عند حدود الاطلاع المحدود على الآداب الأجنبية، فقد كانت أساليبهم أكثرَ ميلًا إلى الصور الذهنية أو العقلية التي لعب فيها الكدّ والمعاناة دورًا كبيرًا كما تبدو عند «الرافعي»، أمّا البشري فقد كانت موهبته التصويرية المعتمدة على الخيال المستوحى من البيئة الشعبية، بالإضافة إلى ما يتمتع به من قدرة على الفكاهة- معادلًا ومقبولًا- عوضَ قصوره في جانب التحصيل الثقافي الأجنبي. ولو أنّ «الرافعي» اتصل اتصالًا فعالًا بالثقافة الأجنبية؛ لكان لأسلوبه شأن آخر. على كلٍّ، فقد كان «انقطاعه عن الثقافة الغربية عاملًا قويًّا في إجادته آداب اللغة العربية، وإدراكه أسرار البيان فيها، ممّا لم يتوفر منه إلّا القليل»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ التأثر بالثقافة الأجنبية كان له دورٌ- أي دور- في تغذية الكتّاب، بوجْه عام، بقيم أدبية جديدة. وكان للكتّاب الذين تعاملوا مع الثقافة الأجنبية من مدرسة البيان دورهم في التفاعل مع هذه الثقافة حيث تخلصت أساليبهم من عيوب كثيرة، واتسعت آفاق تفكيرهم وابتكاراتهم.

(١) في الباب الثالث (الفصل الأول) تفصيل أوسع لهذه النقطة.

(٢) المقتبس من وحي القلم- دراسة ومختارات بقلم خليل الهنداوي وعمر الدقاق- دار القلم- الكويت، بالاشتراك مع دارالشروق- بيروت- بدون تاريخ، ص ٩.

إنّ مدرسة البيان قد استطاعت بحكم هذه المؤثرات: العقيدة والتراث والشخصيات البارزة والثقافة الأجنبية، أن تخطو بالبيان خطوات واسعة وكبيرة، وأن تقيم بناءها التعبيري على أسسٍ راسخة ومتكاملة، ممّا كان له صداه وتأثيره العظيم على اللغة والأدب في عصرنا الحديث.

ثانياً: الجهود الأدبية:

لا ريبَ أنّ ما قدمته مدرسة البيان من جهد ونشاط في ميدان الأدب عامة والنثر خاصة، يمثل إنجازًا كبيرًا، وتراثًا عظيمًا؛ فأعلام هذه المدرسة قد جعلوا من الأدب في حدِّ ذاته قيمة كبرى ينبغي الاحتشادُ لها، والتهيؤ لرعايتها، والإخلاص في مزاولتها.. وبهذا الأسلوب استطاعوا أن ينقلوا لرعايتها، والإخلاص في مزاولتها. وبهذا الأسلوب استطاعوا أن ينقلوا الواقع الأدبي الذي كان يمضي بخطوات عادية في مطالع النهضة إلى واقع آخر تحرك بخطوات سريعة وقوية وفتيّة في العصر الحديث.

وقد امتدت هذه الجهود الأدبية لتشمل قطاعات كبيرة في حياتنا الأدبية تجاوزت مرحلة الإنتاج الذهني إلى وسائل توصيل هذه الإنتاج ونشره. ويمكن إيجاز هذه الجهود في مجالات التأريخ للأدب العربي والإسهام في كتابة الأجناس الأدبية المختلفة، خاصة ما نُقل عن الغرب مثل القصة والرواية، والمشاركة في الحكم على الأعمال الأدبية ونقدها. والتعريب والنقل عن الآداب الأجنبية، وربط الأدب بقضايا المجتمع ومخاطبة الشعب كله، فضلًا عن المشاركة الفعالة في ميدان النشر والصحافة، ولعلّه من المناسب تناول هذه النقاط من خلال لمسات سريعة للتعريف إجمالًا بجهود مدرسة البيان من خلال أعلامها الذين يتناولهم البحث.

١ـ التأريخ للأدب العربي:

تأتي أهمية التأريخ للأدب العربي من حيث إعطاء القارئ فكرة متكاملة عن مراحل تطور الأدب العربي، وازدهاره واضمحلاله، وعوامل القوة وأسباب الضعف، والنماذج الجيدة والنماذج الرديئة.. وهذه الفكرة المتكاملة تضع القارئ في مكانة الحكم الذي يحكم- من خلال المقارنة- على أدب عصره وزمنه ومدى تعبيره عن واقعه وأفكاره، ثم إنها تعطى تصورًا لما يمكن أن يكون عليه الأدب الجيد، وكيفية تجاوز الأدب الرديء.

وقد تناولت أعلام المدرسة التأريخ للأدب العربي على تفاوت فيما بينهم، فبينما يرى القارئ مستوى التأريخ لدى المنفلوطي والبشري يصلُ إلى مجرد الإشارات المقتضبة أو الخاطفة التي تضمها مقالة أو دراسة موجزة[١] فإنه لدى الرافعي والزيات يجد اهتمامًا كبيرًا يصل إلى حدِّ تأليف المجلدات في تاريخ أدبنا العربي.

فقد ألف الرافعي- رحمه الله- كتابه الشهير «تاريخ آداب العرب» [٢] ليرصد فيه ومن خلال أجزائه الثلاثة، جوانبَ هامة في تاريخ العربية وآدابها، ويشتمل الجزء الأول على تناول اللغة ورواتها وما يتعلق بهما، ويوقف الجزء الثاني على إعجاز القرآن[٣]، ويقدّم تحليلا عميقًا ورائعًا- ولعله أول من فعل ذلك في العربية الحديثة-

(١) انظر مثلًا: مقال «أدوار الشعر العربي» في «النظرات»، ج٢ ، وموضوع «تطور الأدب العربي وموضعه بمصر اليوم» في «المختار» ج١.

(٢) مصطفى صادق الرافعي- تاريخ آداب العرب (٣ أجزاء)- دار الكتاب العربي بيروت- (ج١ – ط٤ سنة ١٣٩٤ – ١٩٧٤، ج٢- ط٢ سنة ١٣٩٤-١٩٧٤، ج ٣ ط٢ سنة ١٣٩٤ – ١٩٧٤م).

(٣) كان الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب قد أخرج مستقلًا باسم «إعجاز القرآن»، وقد أشار إلى ذلك محمد سعيد العريان في فاتحة الطبعة الثامنة، والطبعة الثانية باعتبار الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، ص ٥.

لأسرار القرآن الكريم وأسلوبه، وبلاغة النبي ﷺ مع ربطٍ واضح ومقتدر ومتمكّن بآداب العرب وتراثهم، ومجالي تفوقهم البلاغي والأدبي. وفي الجزء الثالث حديث مستفيض عن الشعر العربي ومذاهبه وفنونه المستحدثة عبر عصوره المختلفة، والكتّاب- بصورة عامة- يمثل وعيًا جيدًا وناضجًا ومبكرًا في قرننا العشرين بتطور العربية وآدابها، والنبوغ الفريد في تمثل مواطن القوة والضعف فيها.

ويمكن إضافة كتاب «تحت راية القرآن»[1] إلى مجال التأريخ للأدب العربي لدى مدرسة البيان، فقد كتبه الرافعي ينتقد فيه كتاب «طه حسين» في «الشعر الجاهلي» الذي صدر مثيرًا لأزمة أدبية وعقيدية، اهتزت لها أركان الحكومة المصرية، وأثارت جدلًا عنيفًا على المستوى الشعبي، وقد جاء «تحت راية القرآن» ليتكئ على قاعدة راسخة من الوعي بالتاريخ الأدبي واللغوي، وليدحض مقولات كثيرة في كتاب «طه حسين»، ورغم ما تضمنه الكتاب من أمور تمسّ أشخاصًا من أطراف القضية المثارة؛ إلا أنه يتضمّن الكثير من الأدلة والبراهين التي تدخل في مجال التأريخ للأدب العربي.

أمّا الزيات ، فقد ألّف كتابه «تاريخ الأدب العربي»[2] وقد قسّم فيه تاريخ الأدب العربي إلى خمسة عصور، تتناسب مع مستوى الطلاب والناشئين الذين ألّف الكتاب خصيصًا لهم. ولهذا فقد اهتمّ الزيات بالأصول والكليات والإيجاز في أسلوب موسيقي جذّاب، وقد اعتمد الزيات على عنصر الموازنة بين الشعراء، مع إيضاح الفروق والخصائص، وقد تناول الدكتور محمد رجب البيومي هذا الكتاب

(١) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٧ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٢) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط٢٥ مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

بتحليل جيد موضحًا ما تعرّض له الزيات من هجوم ظالم شنّه عليه أحدُ النقاد، وهو الدكتور «محمد النويهي» في كتابه «ثقافة الناقد الأدبي»، وقد ردّ «ال» على هذا الهجوم ردًّا مقنعًا وموضوعيًّا[١]. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب قد طبع حوالي ثلاثين طبعة، وكان أساسًا للكتب المدرسية التي ألفت فيما بعد، حيث اعتمدت منهجه وتقسيمه، وهو على كلّ حال يبدو كأنه ليس كتابًا مدرسيًّا للطلاب! «لأن أسلوب الكاتب وطريقته التحليلية الموجزة وتشخيصه المحدد المحصور قد جعله نسيجًا وحدَه في اتجاهه»[٢].

ومن الكتب الهامة التي أسهمت في التأريخ الأدبي كتاب «في أصول الأدب» للزيات[٣]، وهو مجموعة محاضرات ومقالات تناولت عددًا من الموضوعات، أهمها: النقد عند العرب وأسباب ضعفهم فيه، والأدب وحظّ العرب من تاريخه، وتاريخ حياة ألف ليلة وليلة، والرواية والمسرحية في التاريخ والفن، وأنواع الرواية، والمأساة، والملهاة، والدرامة (الدراما) في خلال القرون، والجاذبية أو التشويق في القصص، والملحمة، وأشهر الملاحم، وهل عند العرب ملاحم؟ وكما يرى القارئ فإن هذه الموضوعات تعدّ في فترة معالجتها؛ موضوعات جديدة وحيوية، حيث إن بعضها قد ألقي في وقت مبكر نسبيًّا[٤].

---

(١) د. محمد رجب البيومي، أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد الخامس، سنة (١٣٩٥- ١٩٧٥م) ص ٣٠٠ -٣١٠.

(٢) السابق، ص ٣٠١.

(٣) أحمد حسن الزيات، في أصول الأدب، مطبعة الرسالة، ط٣، القاهرة، سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

(٤) مثل محاضرة «الأدب وحظّ العرب من تاريخه»، فقد ألقيت في بغداد في ١٧ يناير سنة ١٩٣٠م (في أصول الأدب ص ١).

ويمكن أنْ يضاف إلى ما سبق أيضًا كتاب الزيات «دفاع عن البلاغة»[1] وهو جمع بين التأريخ للبلاغة عند العرب والغربيين، ويبن التنظير- إن صح التعبير- لقضية اللفظ والمعنى، أو الأسلوب والفكرة. وكما يرى القارئ من عنوان الكتاب، فإنه وقفة دفاعية ضد هجوم دعاة الكتابة بالعامية، والمتهمِين للغة الفصحى بالقصور عن الأداء التعبيري المتلائم مع إيقاع العصر، وهذه الوقفة اعتمدت على استدعاء التأريخ البلاغي والأدبي للغة وربطه بالواقع المعاصر.

٢- الإسهام في تناول الأجناس الأدبية:

يمكن القول: إنّ النثر العربي الحديث في مصر اهتمّ بصورة بالغة بالمقالة والرسالة في بدايات تحوله، ولكنّ مدرسة البيان أسهمت بدورٍ ملحوظ، كان فصل الريادة في ممارسة الكتابة على مساحة عريضة تناولت أجناسًا أدبية مختلفة، تجاوزت المقالة والرسالة، إلى أجناس جديدة، بعضها دخل العربية عن طريق الترجمة والتعريب مثل القصة القصيرة والرواية والنقد الأدبي بمفهومه الحديث والدراسة الأدبية المستفيضة، والتأملات الذاتية الوجدانية والشعر. على تفاوت فيما بين أفراد المدرسة في طريقة التناول.

ففي مجال القصة القصيرة نجد أن معظم أعلام المدرسة قد مارس كتابتها وإن كان بعضهم لم يدرك جيدًا ملامح البناء الفني لهذا الجنس الأدبي، فقد كانت تبدو لديهم متداخلة مع الرواية، دون إدراك لمعنى «الزمن» على وجه الخصوص، فهي عندهم أقربُ إلى مفهوم الحكاية، وعلى هذا الأساس كتبها المنفلوطي والبشري والرافعي- الذي لجأ إلى التاريخ والتراث-. أمّا الزيات فقد كان أقربهم إلى كتابة القصة بالمعنى المتكامل، وإنْ لم يسلَم من المآخذ، التي قلّلت من فنية القصة لديه.

(١) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة ١٩٤٥م.

وعلى كلّ، فإنّ محاولات مدرسة البيان في كتابة القصة قد أسهمت في تأصيل هذا الفن في العربية، وساعدت على تعميق جذوره في التربة الأدبية.

أمّا في مجال الرواية، فإننا لا نكادُ نعثر على روايات بالمعنى الفني، اللّهم إلّا إذا اعتبرنا ما قام به المنفلوطي في رواياته المعرَّبة أعمالًا تنتسب إليه أكثرَ ممّا تنتسب إلى مؤلفيها، وكذلك الحال فيما ترجمه الزيات عن «جيته» آلام فرتر، و«لامارتين»- روفائيل أو صحائف سن العشرين. وإذا اعتبرنا بعض قصص الزيات المؤلفة روايات قصيرة مثل قصة «نورا»[1]، وإذا اعتبرنا ما كتبه الرافعي في «وحي القلم» من قصص تراثية أعاد صياغتها بأسلوبه[2] وما كتبه في رسائل الأحزان وكتاب المساكين وأوراق الورد وحديث القمر؛ أصولا لم تكتمل لروايات رومانسية.

ومع هذا، فإنّ كتابات مدرسة البيان في المجال الروائي، تعد أساسًا مقبولًا للبناء الروائي الذي تطوّر فيما بعد على أيدي الروائيّين المعاصرين» ممّن أدركوا إدراكًا كاملًا طبيعةَ هذا الفن الأدبي في بلاده.

أمّا ما أحدثته المدرسة البيانية في مجال النقد الأدبي فهو مجهود لا ينكَر، خاصة ما قام به «الزيات» حيث بدأ واعيًا بحركة النقد على مستوى التاريخ الأدبي في اللغة العربية واللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية جميعًا، أمّا بقية أعلام المدرسة خاصة الرواد الأوائل (المنفلوطي والرافعي والبشري)، فقد اهتموا بالنقد الجزئي الذي يركز على بعض الجوانب، أو يعطي حكمًا انطباعيًّا عامًّا، أو يتوقّف عند اللغة

(١) في ضوء الرسالة، ط١، مكتبة نهضة مصر، سنة ١٩٦٣م ص ١٢٥.

(٢) وحي القلم، ج١، قصة زواج وفلسفة المهر، ص ١١٣، قبح جميل، ص ١٥١، ج٢ الانتحار، ص ٨٧، السمكة، ص ١٦٢.

ومفرداتها، ولكنّ النقد الأدبي سيحفظ لهم- في كل الأحوال- وقوفهم إلى جانب رقي الأسلوب وسلامة اللغة وتحسين الصورة، وموسيقية الأداء، مع اهتمامهم المتفاوت بالأفكار والفنون.

بيدَ أنه يمكن القول: إنّ إدراك الزيات- خاصة بحكم موقعه كناشر ومحرر للرسالة- قد جعله يضع يدَه على كثيرٍ من عيوب الفنون الأدبية أو الكتابة الأدبية بوجْه عام، وكان مضطرًّا أن يحجب بعضَ الأعمال التي لا تصلح للنشر بحسّه النقدي المرهف، وذوقه الأدبي الصافي.

ومن ثمّ، يمكن القول: إنّ مدرسة البيان في النثر الحديث في مصر، قد أسهمتْ بجهدٍ واضح في مجال النقد الأدبي، وإنْ لم تبلغ مدارج الكمال فيه، ولكنّها على كلّ حال، أدت دورًا يمكن وصفُه بالدور التجهيزي الذي مهّد للدور التكميلي الذي قام به نفرٌ من رفاق أعلامها وتلامذتهم، وممّا يلاحظ هنا، أنه كان للمعارك الأدبية دورٌ كبير في تغذية الحركة النقدية على أقلام مدرسة البيان[1].

ويرتبط بهذا- بطريقة أو أخرى- ما قام به أعلام المدرسة في مجال الدراسات الأدبية، فقد عالج أعلام المدرسة كثيرًا من القضايا على تفاوت بين الإيجاز والاستفاضة، وتنوّع بين الترجمة الأدبية والفنون المختلفة.

وتحفل «النظرات» و«وحي القلم» و«المختار» و«المرآة»، و«وحي الرسالة» و«في ضوء الرسالة» و«في أصول الأدب» بالكثير من الدراسات التي تناول أعلامًا وكتبًا

(١) من أشهر المعارك الفكرية والأدبية ما ثار بين المنفلوطي وطه حسين من جانب واحد، أعني جانب طه حسين، وما جرى بين الرافعي وكلٍّ من العقاد وطه حسين وزكي مبارك، وما حدث بين البشرى وبعض الأدباء، وما وقع بين الزيات وكلٍّ من عبد الرحمن الشرقاوي والشيخ أمين الخولي والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

وقضايا، أثارت في حينها الكثيرَ من الحيوية في المناخ الأدبي، والفكري بوجْه عام. ولعلّ لبعضها صدى ما زال يتردّد في الآذان حتى الآن.

ولعلّه من جهود المدرسة البيانية الواضحة، اتجاه أعلامها في معظمهم إلى إرساء ما يمكن تسميته بأدب التأملات الذاتية والوجدانية، ويمكن أن نجدَ ذلك لدى المنفلوطي في «النظرات»، ولدى البشري في «المختار» ولدى الزيات في «وحي الرسالة» إلى حدّ ما، ولكنه يحفر مسارًا أعمق لدى «الرافعي»، خاصة في كتابه «السحاب الأحمر»، فهو يشتمل على تأملاتٍ قوية وعميقة حول الجمال والحب والمرأة، وهي تأملات تتميز بالحرارة والعمق والتجربة. وفضلًا عن ذلك، فإنه يمكن أن نعتبر كتب الرافعي «رسائل الأحزان» و«حديث القمر» و«أوراق الورد»، و«كتاب المساكين»؛ نوعًا من التأملات الذاتية والوجدانية، التي تتعامل مع النفس في حالاتها العاطفية والذهنية المترددة بين المد والجزر. وهذه التأملات تصل في بعض الأحيان- من خلال تعبيراتها وصورها وألفاظها- إلى مرحلة يمكن تسميتُها «بالشعر المنثور»، فهي بكلّ مقياس راقية الأداء سامية الغرض.

ويبقى أن نشير إلى مشاركة أعلام مدرسة البيان في «الشعر»، لقد كان معظمهم شعراء إلى جانب كونهم ناثرين، المنفلوطي نظمَ القصائد، وبسبب قصيدة له دخل السّجن[1]، والرافعي له ديوان، وقصائده عذبة وتفيض عاطفية ورقّة، ولعل من المناسب ذكر أنّ «الرافعي» صاحب نشيد «اسلمي يا مصر» الشهير، وكذلك

(١) كانت القصيدة تعريضًا بالخديو عباس حلمي، وقد عادَ من سفر، وكان على خلافٍ مع محمد عبده مطلعُها: «قدوم ولكن لا أقول: سعيد وعود ولكن لا أقول: حميد». راجع: الأعلام، ج٨، ط٣، ص ١٤٢.

النشيد الوطني «إلى العلا»، كذلك فللبشري بعض القصائد، وقد نظمَ «الزيات» قصائد في مناسبات خاصة، ضمّنها بعض رسائله التي لم تنشر، وكلّ أشعارهم تدلّ على مقدرة شعرية ليست هيّنة، وإن كان بعضهم آثرَ عدم الاهتمام بهذا الجنس الأدبي العريق.

٣ـ التعريب والنقل عن الآداب الأجنبية:

قامت مدرسة البيان بجهود طيبة في مجال التعريب والنقل عن الآداب الأجنبية، فقد نقلت العديد من الآثار الأدبية الجيدة، وعرّفت بأصحابها، واستطاعت أن تجذب إلى هذا المجال العديد من المترجمين والأدباء العرب، ممّا أثرى الحياة الأدبية في النصف الأول من القرن العشرين إثراءً عظيمًا.

كان بعض أعلام المدرسة البيانية، لا يجيدون اللغات الأجنبية، وبعضهم لم يذهب إلى الغرب، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يستعينوا ببعض أصدقائهم ليقوموا بترجمة الأعمال الأدبية الأجنبية ترجمة حرفية، ويتولوا هُم- بعدها- القيام بالصياغة البيانية وفق أساليبهم الخاصة.

وقد نقل «المنفلوطي» بعض الأعمال عن الفرنسية نثرًا وشعرًا، فترجم بعض الروايات مثل «بول وفرجيني»، و«سيرانودي برجراك»، و«ماجدولين»، وكذلك ترجم بعض القصص القصيرة وبعض القصائد، وقد تصرف فيها تصرفًا كبيرًا إلى درجةِ أن غيَّر بعض العناوين، وأصبحت هذه النصوص تنسب إلى المنفلوطي أكثر ممّا تنسب إلى أصحابها.

وكان «الزيات» من أبرز الذين استطاعوا أن ينقلوا نصوصًا من الأدب الفرنسي إلى الأدب العربي، بصورة أكثر نضجًا وتألقًا، فقد ترجم «روفائيل- أو صحائف سن العشرين» لـ لامارتين، و«آلام فرتر» لجيته، كما نقل عددًا من القصص القصيرة

ضمّنها كتابه في «ضوء القمر وقصص أخرى»، ولم تقتصر ترجمات «الزيات» على القصة والرواية، ولكنه امتدّ إلى الشعر، فترجم عددًا من القصائد، من بينها قصيدة لامارتين الشهيرة «البحيرة».

وقد كان «الزيات» في ترجمته، حريصًا على الوفاء بمضمون النص في أصله الفرنسي، وحريصًا في الوقت نفسه على الوفاء بصياغة بيانه، تجعل النصّ ينتمي إلى الروح العربية والذوق العربي، وقد نجح «الزيات» في نشاطه التعريبي إلى حدٍّ كبير كما سيأتي.

بيدَ أنه من الجدير بالإشارة، أنّ بعض أعلام مدرسة البيان كالرافعي مثلًا، لم يحاولوا الدخولَ إلى عالم الترجمة أو التعريب بصفةعامة؛ لأن اتصاله باللغة الأجنبية كان ضعيفًا أو محدودًا. ولعلّه عوض ذلك بتعمقه في مجال اللغة العربية وتاريخها كل ما يتعلق بها.

إنّ جهود «مدرسة البيان» في مجال التعريب ونقل الآداب الأجنبية قد قدمت نماذج جيدة وجديدة من آداب الغرب، أتاحت لجيل بل أجيال من الأدباء ومحبي الأدب، أن يطلعوا على أفكار جديدة، وأساليب جديدة، وتصورات جديدة، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الأعمال التي قامت بتعريبها مدرسة البيان ما زالت تطبع حتى وقتنا هذا، وقد وصل عدد الطبعات لبعض هذه الأعمال إلى الطبعة العشرين أو تعداها، كبعض أعمال المنفلوطي.

٤ ـ ربط الأدب بقضايا المجتمع:

تكاد معظم أعمال مدرسة البيان تدور حول المجتمع وقضاياه، وإذا كان «أحمد أمين» يرى أن سرّ تخلف الأدب العربي، وضيق رقعته التي يتمدد فوقها؛ هو كونه أدبًا أرستقراطيًّا، وليس أدبًا شعبيًّا، فإن مدرسة البيان قد صبّت معظم اهتمامها

بمجموع الناس، خاصة الطبقة الشعبية، وفقًا للتصورات الإسلامية التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم في وحدةٍ واحدة، مسئول بعضها عن بعض، ولعل العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تفاعلت معها مصر في النصف الأخير من القرن الماضي والنصف الأول من القرن الحاضر؛ قد ساعدت بصورة أو بأخرى، على أن تتّجه مدرسة البيان إلى التعامل مع الوجدان الشعبي، ومناغاة همومه وأشجانه، والعزف على الأوتار التي تقلقه وتقلق كلّ ضمير حساس، ومن هنا، كان كتّاب المدرسة البيانية أكثر الكتّاب- إن لم يكونوا أولهم- إلحاحًا على قضايا الفقر، والثراء الفاحش وغير المشروع، والاهتمام الممقوت بالوظائف الحكومية، والاتصال المريب والمزعج بين الحضارة الإسلامية والمدنية الغربية، والتخلخل الأخلاقي والسلوكي بين أفراد المجتمع، وقضية المرأة، والرعاية الصحية، والاجتماعية، إلى غير ذلك من القضايا التي تشغل المجتمع وتؤرقه.

لقد عالج كتّاب «مدرسة البيان» هذه القضايا، كلٌّ بأسلوبه الخاص، هادفين إلى إصلاح المجتمع، وبناءِ وطن قوي، يتمتع أفراده بالتعليم والثقافة والمعرفة، والصحة الجيدة والرعاية الشاملة، والرخاء والعدل والحرية.

وقد ألحّ الكتّاب- خاصة في مقالاتهم- على تناول هذه القضايا، لدرجة أنّ المرء يكادُ يرى بعضهم، وقد وقف معظم مقالاته على قضايا الفقراء مع الأغنياء، كما نجد لدى المنفلوطي في «النظرات»، كما أنشأ عددًا من القصص التي تتحدّث عن مأساة الفقراء وآلامهم ومعيشتهم الصعبة والمرهقة.

ويمكن- بشكل عام- أن يطالع القارئ هذه القضايا في كتب أعلام المدرسة البيانية، التي جمعت في مقالات، مثل النظرات للمنفلوطي، ووحي القلم للرافعي، والمختار للبشري، ووحي الرسالة، وفي ضوء الرسالة للزيات.

إنها حافلة بالقضايا التي شغلت المجتمع، وكانت تمثل مشكلاتٍ قائمةً شعر المجتمع بآثارها، وشاهدَ ظلالها، وضجّ بطلب الحلول لها.

ولعلّه من المفيد القول: بأن أثرَ هذا الاهتمام بقضايا المجتمع تمثّل في نقطتين:

الأولى: على الكتّاب أنفسهم، بأنْ جعلهم يقتربون من الشعب، ويخاطبون الناس بلغةٍ مفهومة ومترسّلة، وخالية من التكلّف والتعقيد إلى حدّ كبير.

الثانية: تكوين رأي عام، جعل من أهدافه الأساسية حلّ المشكلات الاجتماعية الملحّة، والتي عرضها الكتّاب، وتناولوها بالرأي والمناقشة، ممّا حدا بالسلطة أن تجعل من برامجها الأساسية التعرّض لهذه المشكلات، وطرح الحلول أو التصورات الممكنة للحل.

ويمكن القول: إنّ بعض هذه القضايا قد وجدَ طريقه للحلّ فعلًا، وبعضها الآخر إلى يومنا ما زال يبحث عن حلّ بحكم المضاعفات والمتغيرات التي طرأت على الوطن وأفراده. ولكن يبقى لمدرسة البيان- على كلّ حال- دورها الفعّال في الدخول إلى عالم الناس ككل، وطرح مشكلاتهم، ومناقشة قضاياهم، بروح الأدب (شعبيًّا) وليس (أرستقراطيًّا)، وأتاح له فرصة التمدّد والانتشار على مساحة شعبية لا يمكن الاستهانة بها مهما كانت الظروف.

٥- النشر والصحافة:

من المؤكد أن اتصال أعلام البيان بالصحافة ودور النشر، كان له أثرٌ كبير في ذيوع أدبهم وأفكارهم، مع تقدم الطباعة، فإن الكلمة المطبوعة بواسطة مدرسة البيان، كان لها أثرها الفعّال في الحياة الأدبية والثقافية بوجْه عام.

لقد أعطتهم الصحافة- بحكم اتصالهم بها، خاصة الصحف المشهورة مثل: المؤيد، والأهرام، والمقتطف، والهلال، والبلاغ، والسياسة الأسبوعية، وغيرها؛ فرصةً طيبة لمواصلة النشر، والاتصال بالقرّاء بصفة منتظمة وميسرة.

ولعلّ الصحافة في حدّ ذاتها تثير عواملَ المنافسة بين الأدباء أنفسهم، فيلجأون إلى التنافس والاستمرار في إمدادها بالمادة الأدبية، خاصة إذا كانت هنالك معركة أدبية، أو حوار أدبي مثير.

ويمكن القول: إنهم في هذا الجانب قد منحوا الصحافة قيمةً كبرى، قد لا تتوفر في أيامنا، هي اشتمال الصحافة على أدبٍ راق، ومنحتهم هي أيضًا ميْزة عظيمة، وهي الذيوع أو الانتشار الذي لا تحققه الكتب غالبًا.

على أنّ بعضهم قد أخذ زمام المبادرة في ميدان النشر، واستطاع أن يجعل من نفسه ناشرًا للأدب بجانب كونه منتجًا له. فقد كانت لجنة التأليف والتي أسهم فيها «الزيات» بجانب «أحمد أمين» وآخرين؛ فرصةً جيدة لنشر أعمال أدبية راقية باللغة العربية سواء في ذلك كتب التراث المحققة، أو الكتب المؤلفة حديثًا بأقلام أعضاء اللجنة أو غير أعضائها، وكانت هذه الفرصة مناسبة للإسهام الجيد في نشر الثقافة، شاركت فيه مدرسة البيان ببعض أعلامها.

بيد أنّ المبادرة الهامة في هذا المجال هي ما قام به «الزيات» من إنشاء مجلة «الرسالة» الأسبوعية، كمجلة للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، وقد استمرت الرسالة التي أنشئت في عام ١٩٣٣م[١] زهاء عشرين عامًا حتى توقّفت بعد أن

(١) في ضوء الرسالة، ط١، ص س.

أثقلتها الديون والضرائب، وكانت «الرسالة» ميدانًا فسيحًا وواسعًا لإثراء الحياة الأدبية بصفة عامة في كافة مجال الفنون الأدبية، وساهمت في تطوير الأداة الأدبية تطويرًا جديرًا بالانتساب إلى زمنها، وخرّجت على صفحاتها العديدَ من أدباء العربية، ليس في مصر وحدها، ولكن في كلّ مكان في أرض العرب والمسلمين الناطقين بالعربية أو الذين يجيدون النطقَ بها، وللمرء أن يدرك أثر «الرسالة»، وهي تطلّ كلّ أسبوع حاملة مقالًا أو أكثر لعلَم من أعلام مدرسة البيان، بأسلوبه وخصائصه وملامحه، إنه أثرٌ فعّال ولاشك، ظهر على يد تلاميذ هؤلاء الأعلام الذين اعتبرهم النقد امتدادًا لمدرسة البيان، فطوّروا الأسلوب والأداء، مع الحرص على الخصائص الفنية العامة للمدرسة.

وقد قام «الزيات» بإصدار مجلة «الرواية» متخصصة في نشر الإنتاج القصصي بأنواعه، ولعلها أول مجلة عربية متخصصة في القرن العشرين تُعنَى بهذا الجانب، وقد نشرت مجموعة من القصص والروايات المسلسلة، كان لها دورٌ في ترسيخ قواعد الفن القصصي ونشرها بصورة عامة، وكان الزيات نفسه يشارك في نشر بعض قصصه في المجلة، ولكنها للأسف توقفت بعد فترة قصيرة لنفس الأسباب التي توقفت من أجلها الرسالة فيما بعد.

وممّا يذكر أن «الرسالة» كانت لها مطبوعات تخرجها للجمهور، وقد طبعت العديد من الآثار الأدبية لكثير من الأدباء، وساهمت بذلك في تعريف الجمهور بالأدب والأدباء، ووسعت من قاعدة الثقافة بوجه عام. محققة شعبية الأدب التي تحدث عنها «أحمد أمين» فيما سبق.

وعمومًا يمكن القول: إن مدرسة البيان، فيما قامت به وقدمته للأدب وللجمهور سواء تمثل ذلك في التأريخ للأدب العربي، واطلاع الجمهور، والمتأدبين على النماذج الجيدة فيه، أو تأصيل الفنون الأدبية الوافدة وتطوير الفنون الموروثة، أو التعريب وثقل الآثار الأجنبية إلى لغتنا العربية، أو ربط الأدب بالمجتمع ونقله من «بهو الارستقراطية» إلى «ساحة الشعب»، أو المشاركة الفعالة في ميدان الصحافة والنشر؛ قد استطاعت أن تقدم جهدًا رائدًا يستحق التقدير والامتنان لجيل الرواد من مدرسة البيان ومَن شاركهم مِن المدارس الأخرى.